

مشكلة التجديد الفكري والفلسفي عند مالك بن نبي

The problem of intellectual and philosophical renewal of Malik bin Nabi

بوثلجة فازية

جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله

faziabouteldja768@gmail.com

تاريخ النشر: 2020-12-15

ملخص:

لقد ظهر في الفكر الإسلامي المعاصر خطاب جديد وتيار شامل سجل حضوره المميز على الساحة الفكرية المعاصرة، لأنه لم يقتصر على معالجة قضايا فقهية أو دعوة سياسية لمقاومة الاستعمار والتبعية، بل هو خطاب تجديد ينطلق من اعتبار الإسلام مشروعاً حضارياً متكاملًا لا يخص بيئة مكانية ولا ظرفاً زمانياً ولا جنساً معيناً، وإنما تميز هذا الخطاب في تبنيه لأدبيات الدين الأساسية وهذا ما يجعلنا نصطلح على تسميته ب: تيار التجديد الحضاري وقد ظهر هذا اللون من التجديد إبان ترقّي الحضارة الإسلامية والتي عاصرت ظهور ابن خلدون الذي أرجع سقوط الحضارة الإسلامية إلى انتشار البدع في الدين وما صاحبه من جمود في الفقه وشلل عقلي وتمزق سياسي مما مهد للاستعمار. ولذلك فإن دعوة ابن خلدون التجديدية قدمت علاجاً مناسباً لازمة أمته وقد أدرج أغلب الباحثين على اعتبار مالك بن نبي بمثابة ابن خلدون العصر الحديث، وأعظم وأبرز مفكر أولى عناية فائقة للفكر الحضاري الإسلامي منذ ابن خلدون، فهو من أرسى قواعد مدرسة التجديد الحضاري في الفكر الإسلامي المعاصر حيث إنفرد عن أقرانه من المصلحين بأنه درس مشكلات الأمة الإسلامية إنطلاقاً من رؤية حضارية شاملة ومتكاملة وقد أظهر تيار التجديد الحضاري عند مالك بن نبي مهارة فائقة في تشخيص النفسية الأوروبية وإكتشاف عيوبها حيث رأى أن هناك نزعة عدوانية تجري في عروق الحضارة الغربية تجاه الآخرين وأن كتابه (شاهد القرن) خير شاهد على هذه الحضارة بكل إيجابياتها وسلبياتها وهنا يدق بن نبي ناقوس خطر الحضارة الغربية على العالم الإسلامي،

الكلمات المفتاحية: التجديد، الفكر، الثقافة، مالك بن نبي، الحضارة، عالم الأفكار، عالم الأشياء، عالم الأشخاص

Abstract:

A new discourse and a comprehensive current has emerged in contemporary Islamic thought that recorded its distinguished presence on the contemporary intellectual scene, because it was not limited to addressing doctrinal issues or a political call to resist colonialism and dependency, but rather a renewal speech that proceeds from considering Islam an integrated civilized project that does not concern a spatial environment nor a temporal circumstance. Not a specific gender, but this discourse was distinguished in its adoption of the basic literature of religion, and this is what makes us call it to be called: the civilizational renewal stream. This color emerged from the renewal during the deterioration of Islamic civilization, which contemplated the emergence of Ibn Khaldun, who attributed the fall of Islamic civilization to the spread of heresies in Deen and the companionship in jurisprudence, mental paralysis and political rupture, which paved the way for colonialism. Therefore, Ibn Khaldun's call for renewal provided an appropriate treatment for his nation's crisis, and most researchers have included Malik bin Nabi as Ibn Khaldun, the modern era, and the greatest

and most prominent thinker has paid great attention to Islamic civilizational thought since Ibn Khaldoun, as he established the rules of the school of civilizational renewal in contemporary Islamic thought. Where he devoted himself to his fellow reformer that studied the problems of the Islamic nation based on a comprehensive and integrated civilization vision. The stream of civilizational renewal at Malik Bin Nabi showed a great skill in diagnosing European psychology and discovering its faults, where he saw that an aggressive tendency is taking place in the veins of Western civilization towards To others, and that this book (Watch the Century) is the best witness to this civilization, with all its pros and cons, and here, Bin Nabi bells the danger of Western civilization to the Islamic world.

مقدمة:

يمثل التجديد في الفكر الإسلامي سمة بارزة لرسالة الإسلام، والذي نعني به عند مفكري الإسلام انه إعادة الأفكار إلى جذورها وذلك بإزالة الشوائب التي عكرت صفوها وهو ما ينطبق على أهم تيارات التجديد في الفكر الإسلامي التي عملت على تطهير الإسلام مما لحق به من شوائب. وقد بدأت بوادر هذا الاتجاه مع بداية القرن التاسع عشر، الذي يعد عصر التقدم العلمي والتقني في الغرب، وعصر التخلف والانحطاط والفساد والاستعمار في الشرق، وقد انتهى علماء هذا التيار إلى الاتفاق على أن تقهقر العرب والمسلمين يعود إلى أنهم هجروا تعاليم الدين الإسلامي الصحيحة فاندھشوا بالحضارة الغربية فارتموا في أحضانها. وهكذا أصبحت مشكلة العرب والمسلمين في القرن التاسع عشر والتي شكلت قضية التجديد الأساسية هي رد الاعتبار للدين وللتراث، حتي تعود للمسلمين حريتهم و استرجاع مجدهم الضائع وقد برز الفيلسوف الجزائري مالك بن نبي (1905-1973) ضمن نخبة من العلماء والمفكرين المسلمين المعاصرين (الى جانب محمد اقبال¹) الذين شعروا منذ البداية جديّة التحديات الآتية من الغرب ونموذجه الحضاري الخطير، وانكبوا على معاشيتها وإدراكها من أجل استيعابها لبورة موقف واع وبناء، وأمام هذا الوضع المتأزم برز سؤال في غاية الأهمية وهو: لماذا تأخر العرب والمسلمين؟ وهل من وسيلة ناجعة يمكن للمسلمين عن طريقها أن يصبحوا جزء من العالم المتحضّر مع الحفاظ على تراثهم ومبادئهم؟ ماهي اسس التجديد وشروطه عند مالك بن نبي (العالم الإسلامي أنموذجا)؟

1-لمحة عامة عن بوادر التجديد عند المفكرين المسلمين:

وفي هذا الاتجاه يلوح في الأفق مشروع ضخم يتجسّد في بروز مدرسة التجديد الحضاري المعاصر منذ محمد إقبال التي عملت على تكوين وتشكيل رؤية شاملة في عرضها لأزمة المسلم باعتبارها أزمة إنسانية عامة في جوهرها، ومما يثير العجب- كما يذكر إقبال- أن وحدة الشعور الإنساني التي هي مركز الشخصية الإنسانية الإسلامية لم تكن أبدا موضع اهتمام جدي في تاريخ الفكر الإسلامي، بل أن فلاسفة الإسلام استلهموا آراءهم فيها من الفكر اليوناني².

وقد اتخذ محمد إقبال من القرآن الكريم مرجعا أساسيا ليؤكد أن للإنسان مكانة مرموقة تميزه عن باقي المخلوقات، حيث أنّ الإنسان بالرغم من أخطائه إلا أنه أريد أن يكون خليفة الله في أرضه والدليل على ذلك قوله تعالى " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ"³. لذلك نجده ينتقد حركة الإصلاح الديني بالخصوص جمال الدين الأفغاني بقوله أن نشاطه المكثف لو اقتصر عمله كله على

الإسلام بوصفه نظاماً لعقيدة الإنسان وخلقه ومسلكه في الحياة لكان العالم الإسلامي أقوى مما هو عليه اليوم⁴.

وتبعاً لما أولاه الإسلام من تكريم للإنسان وحديث القرآن عن سجود الملائكة لأدم، واستناداً إلى ذلك دعا فيما بعد المفكر مالك بن نبي إلى بناء ثقافة إنسانية مستلهمة ذلك من مبادئ الإسلام السمحة وقد نلمس جانب التجديد لدى مالك بن نبي في كيفية تحليله لأزمة المجتمع الإسلامي الحضارية حيث أرسى دعائم علم جديد في فلسفة التاريخ وعلم النفس المجتمعات يتحدث فيها عن ظاهرة تخلف الضمير وعدم مواكبته لتقدم العلم، وقد قال عنه الدكتور جودت سعيد "وكان بذلك أول باحث حاول أن يحدد أبعاد المشكلة على أساس علم النفس وعلم الاجتماع وسنة التاريخ.

"وقد اعتبر مالك بن نبي أنّ الخروج من الأزمة ليس بالأمر الصعب ولا هي حالة مستعصية الحل، فقط فإننا في أمس الحاجة إلى مفكرين أصحاب النظرات الثاقبة والعميقة الذين يستطيعون أن ينضروا إلى المشكلة في إطارها العام والشامل ويحددوا بدقة منابعها الأصلي. وأن يكشفوا أصل الداء ويشخصوا أغراضه ويحذروا من مخاطره على المدى القريب والبعيد، وقد نفهم من هنا أن البديل الإسلامي الذي تتطلع إليه مدرسة التجديد الحضاري لدى مالك بن نبي ومفكري الإسلام المعاصرين ليس مجرد شعارات خالية من أي مضمون وإنما عبارة عن دراسات عميقة ودقيقة.

وينبغي التأكيد إذن على أن التجديد الحضاري في الفكر الإسلامي المعاصر يتولى مسؤولية في غاية الأهمية يتمثل في انتشار الأمة من وضعها المتأزم إلى الشهود الحضاري. غير أن هذا التجديد الحضاري في الفكر الإسلامي المعاصر ليس من شأنه أن يلغي جهود حركات النهضة في العالم الإسلامي وتبقي عملية التجديد الحضاري انتصاراً لقضية الإسلام مصداقاً لما ورد فيه حيث من اجتهاد وأصاب فله أجران، ومن اجتهد واخطأ فله أجر واحد⁵.

إن الشيء الذي نلاحظه لدى هؤلاء المجددين بالرغم من اختلاف الفترة الزمنية التي عاشوا فيها- هو ارتباطهم الوثيق بالتراث الإسلامي ودعوتهم إلى إحيائه وتجديده حيث نجد هذه الفكرة كذلك لدى المفكر المعاصر "حسن حنفي" الذي تميز مشروعه الحضاري التجديدي بمجموعة من الخصائص، وقد ارتبطت هذه الخصائص بالظروف الفكرية والثقافية التي تبلورت فيها ملامح مشروعه ومعالم فلسفته. وهي ظروف ارتبطت بماضي الأمة فهي أمة تراثية تاريخية، كما ارتبطت بثقافة غربية أوربية اطلع عليها المفكر واستفاد منها في دراساته وأبحاثه كما ارتبطت كذلك بواقع أمته المعاصر وتحدياته ومشكلاته ومتطلباته، فجاءت فلسفته وجاء مشروعه يحمل خصائص أملت ظروف المرحلة التاريخية المعاصرة الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية، وأبرزتها ثقافة المفكر الواسعة والمتنوعة حول التراث.

2- التجديد الحضاري عند مالك بن نبي:

نتناول في هذا المحور صلة التجديد بالحضارة بشكل عام ثم ننتقل إلى تحديد معنى التجديد الحضاري عند "مالك بن نبي" فهل هو البناء الحضاري أم تغيرات تجري داخل الحضارة ذاتها؟ فإن كان التجديد الحضاري يعني البناء الحضاري، فما هي عناصر ومواد هذا البناء؟، وإذا كان التجديد الحضاري تغيرات تطرأ على الحضارة فما هي عوامل ومظاهر هذه التغيرات وما هي نتائجها؟، أهي الاستمرار والدوام والقوة أم هي الانهيار والأفول؟. لكن قبل الإجابة عن هذه الأسئلة علينا أن نضبط بعض المفاهيم الأساسية والتي بواسطتها نصل إلى إيجاد حل لمختلف إشكالياتنا.

2-1 ضبط المصطلحات:

التجديد في أصله اللغوي: مأخوذ من جَدَّد الشيء، وتجدَّد الشيء، إذا صيَّره جديداً أو صار جديداً. ومن معاني التجديد في أصل اللغة: التعظيم والإجلال، ومنه قوله تعالى: وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ()، أي عظمته وجلاله وغناه

التجديد بمعنى الاصطلاح يظهر أكثر بتعريف أبي الأعلى المودودي - رحمه الله إذ يرى أنّ المجدّد هو: "كل من أحيا معالم الدّين بعد طمسها، وجدّد حبله بعد انتقاضه..(). أما التجديد عند "أندريه لالاند" هو إنتاج شيء جديد،

Innovation : production de quelque chose de "nouveau"³فالتجديد يكون

حيث يكون الجديد، وعكسه الجمود والخمول والثبات فهو يمثل فاعلية إنسانية مصدرها الفرد والمجتمع يرتبط بالإنسان وبما يملكه من قدرات وطاقت لأنه متصل بالجانب النفسي والدّهني عنده (الإنسان) كما يتصل بحياته الاجتماعية وسائر مكوناتها، فالتجديد يتصل بالحضارة، لأنه إذا كانت الحضارة هي نتاج تفاعل النشاط الإنساني مع سائر القوانين أو السنن الكونية في الفرد والمجتمع والطبيعة لأجل تطوير حياة الإنسان المعرفية والروحية والمادية في حياته الواقعية، فالتجديد الحضاري شرط ضروري لعملية البناء الحضاري وسابق عليها. فالحضارة هي كذلك تجديد ولا حضارة في غياب التجديد فالتجديد الحضاري، يمثل كما رأينا شرطا ضروريا لوجود الحضارة، فالتجديد هو عملية تغيير يجريها الإنسان على الأشياء فينشئ بها الجديد وينتجه، أو يبذل شيئا ما من حالة إلى أخرى، فيصبح التغيير ضروري للتجديد، يحدثه ويشرف عليه ويظهر من خلاله⁶. كما يرتبط مفهوم التجديد بمفهوم التطور لأن معني التطور لدى الفلاسفة تعني النمو أو التبدل وبهذا فإن التطور يتضمن التجديد والتجديد يتضمن التطور ولا سبيل للفصل بينهما. كما يعتبر الإبداع شرطا لعملية التجديد لأنه يمثل إنشاء شيء لم يكن موجودا⁷

إنّ التجديد الحضاري يمثل فعالية بشرية وهو قدرة الإنسان على الإبداع بشقيه: الاختراع والاكتشاف، لأن استقرار التاريخ يبين لنا أنّه لا يوجد تاريخ لحضارة ما بدون اختراع أو مخترعين وأي مجتمع يخلو من المبدعين في الجانب الفكري والجانب الاجتماعي والمادي فهو مجتمع يخلو من الحضارة وليس فيه تجديد حضاري، وأي مجتمع فيه إبداع وتحضّر فيه التغيّر والتطوّر والتقدّم والتحوّل وهي مفاهيم مترادف مفهوم التجديد الحضاري وتعبّر عنه وتدل عليه.

إذا كان التجديد الحضاري مفهوما مركبا من أمرين هما التجديد والحضارة فالتجديد كما سبق وأن عرفناه هو إنتاج الأشياء الجديدة المعنوية والمادية، وبهذا فهو تطوير للأفكار وللعمل ولوسائل العمل، ويدخل هذا التجديد في إطار استراتيجية البناء الحضاري الذي تمثله الحضارة كظاهرة بشرية تاريخية اجتماعية للفرد، وإذا كانت الحضارة هي انتقال الإنسان من حياة بسيطة بدائية إلى حياة مدنية مزدهرة تتوفر فيها شروط الحياة الإنسانية الراقية بما يكفل لكل فرد مطالبه وحاجاته في كل مرحلة من مراحل حياته، فإنّ التجديد الحضاري هو شرط ضروري سابق على كل حضارة، ومن جهة أخرى فإنّ التجديد في الحضارة بعد قيامها أمر واجب لضمان قوة الحضارة واستمرارها، فالعلاقة بين التجديد والحضارة هي علاقة العلة بالمعلول والشرط بالمشروط والنتيجة بالسبب، إذ أنه لا حضارة في غياب التجديد. والتجديد الحضاري عند مالك بن نبي يشكل جوهر البناء الحضاري ولبه لأنه عملية تنفيذ الخطة المحددة في استراتيجية البناء الحضاري⁸.

ولا شك أن تكوين الحضارة ونموها وقيامها لدى مجتمع ما وفي مرحلة تاريخية من مراحلها يتطلب تغييرا في الأنفس والأفكار والأشياء وهذا لا يأتي إلا بمجهودات تصدر عن إنسان يعيش التغيير فينفسيته وذهنه ويغير من أخلاقه وسلوكه كما يغير محيطه الاجتماعي والطبيعي، هذا التغيير في استراتيجية البناء الحضاري والنهضة الحضارية هو ما يعرف بالتجديد الحضاري فتجديد المسلم لإيمانه باستمراره في العبادة ومراجعة العقيدة والتمسك بتعاليم الكتاب والسنة والاعتداء بالصحابة والامتثال لأوامر ونواهي الشرع وحركة الإصلاح التي بادر بها عدد من المفكرين في العالم الإسلامي أمثال "جمال الدين الأفغاني" و"محمد عبده" و"عبد الحميد بن باديس" وغيره هي من التجديد الحضاري، والثورة الجزائرية هي من التجديد الحضاري، وكل فعل فيه جديد يستهدف الوصول إلى التحضر هو تجديد حضاري ضروري ومطلوب في كل عصر حيث أنّ كل نهضة وكل حضارة وكل صحوة حضارية تشترط التجديد الحضاري باعتباره تغييرا في الإنسان والمجتمع، هذا يحدث الحضارة ويصنعها كما يعمل على تنميتها وتطويرها،

فهو شرط البناء الحضاري وشرط تطور الحضارة، فالحضارة الإسلامية قامت بعدما غير المسلم نفسه وعقليته ومحيط المجتمع الجاهلي، وزوده بالطاقة الروحية والرغبة في البناء فدفعته تلك الطاقة الروحية إلى الجهاد والإعمار وإلى العمل والبحث فتكونت العلوم والفنون والصنائع، وتطور الحضارة الإسلامية أساسه التغييرات والتجديدات التي أدخلها المسلمون على حياتهم بصورة تدريجية في المجالات الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية نتيجة لاحتكاكهم بثقافات وديانات الشعوب والأمم الأخرى.

فالتجديد الحضاري لا يكون وراء تكوين حضارة فحسب بل يكون كذلك شرط تطورها، وما دام التجديد هو إنشاء شيء جديد في الجانب المادي أو المعنوي فإن تطور الحضارة يعني تجديد جانبها المادي والمعنوي باستمرار، فمن العين المجردة إلى المجهر الضوئي "الميكروسكوب" إلى المجهر الإلكتروني وهكذا مع تطور وسائل النقل والاتصال. ومن طريقة الإلقاء والحفظ في التعليم إلى طريقة التعليم بالحوار وبالأهداف إلى طريقة التعليم بالكفاءات. كل هذا يؤكد الدور الذي تلعبه ظاهرة التجديد الحضاري ليس في تكوين الحضارة فحسب بل في تنمية مجالاتها وتطوير منتجاتها ومنجزاتها.

وتطور العلوم بفضل تطور مناهج ووسائل ونتائج البحوث العلمية في الحضارة المعاصرة يدل على عدم استغناء أي مجتمع يريد الحضارة عن عوامل ومبررات التجديد الحضاري⁹ وقد شكلت أفكار مالك بن نبي ومنهجه وخطته في الإصلاح والتجديد نظرية فلسفية جديدة، قائمة بذاتها، تحدد بدقة وبموضوعية أسباب التخلف وسبل القضاء عليه، وشروط الحضارة وأسباب انهيارها، وفي نظره كل الحضارات والمدن التي شهدتها تاريخ الإنسانية لا تخرج عن خط نظريته القائمة على أساس الفكرة الدينية¹⁰.

ولقد ذكر فيلسوف الحضارة مالك بن نبي الفيلسوف الشاعر والمفكر المصلح محمد إقبال في كتابه "شروط النهضة"، وأشاد بمحاولته الفكرية الإصلاحية الفذة، التي خرجت عن المألوف، لما لها من دقة وعمق في النظر وقوة في التشخيص.¹¹ مما يجعلنا نكتشف الارتباط القوي والصلة المتينة بين نظرية الإصلاح عند محمد إقبال وبين نظرية الإصلاح عند مالك بن نبي، تجعلنا نعتبر أن فلسفة إقبال تمثل المرجعية الفكرية، والأرضية الفلسفية الميتافيزيقية، والإطار النظري لفكرة الإصلاح والتجديد عند مالك بن نبي، والتي بدورها تعتبر المحاولة الفكرية لفكرة وفلسفة إقبال في الإصلاح والتجديد لأن ما لاحظناه لدى فلسفة محمد إقبال ومالك بن نبي أنهما من أصول واحدة، وانتماء ديني وتاريخي واحد، ومن طبيعة واحدة، وجدت من أجل تحقيق أهداف وغايات واحدة. فهما يمثلان معا فكرا فلسفيا، كانت الساحة الفكرية والثقافية والاجتماعية في أمس الحاجة إليه، وكل من الفلسفتين تمثل نظرية ذات أصول وأبعاد فلسفية، علمية، فكرية، ودينية، وهي محاولة لم يعتبرها أصحابها خاصة بالعالم الإسلامي أو بالعالم المتخلف، لأنها لا تقتصر على زمن معين أو وطن بعينه أو شعب بمفرده بل هي نظرية عامة موجهة للإنسانية جمعاء، مما جعل النظريتين ذات طابع عام وشامل، لا تقتصران على فرد ما أو جماعة ما أو زمن ما.

3- خصائص مشروع التجديد الحضاري عند مالك بن نبي :

3-1 التراثية: اعتمد صاحب مشروع "التراث والتجديد" على إحياء التراث، وكانت رسالته الأولى تحمل بوادر ومحاولة قراءة أصول الفقه وإعادة بنائه وفق ما يقتضيه العصر، بأدوات ومنهجية معاصرة فلا سبيل في نظره إلى التخلص من الأزمة التي يعيشها العالم العربي والإسلامي في غياب قراءة التراث وإعادة بنائه، لأن شعوب العالم العربي المعاصر تعيش على التراث وهو مخزون نفسي يؤثر فيهم شعوريا ولا شعوريا، وأية محاولة لتجاوز الأزمة خارج التراث ومن دونه هي ضرب من الوهم ونهايتها الفشل، والأمر يختلف عما حدث في الغرب الأوروبي، حيث قامت النهضة الأوروبية الحديثة بعدما تعرضت كل جوانب التراث للنقد والهدم، لأن الموروث التاريخي الغربي آنذاك ارتبط بجوانب مظلمة فكرياً وسياسياً واجتماعياً ودينياً. أما التراث عندنا فيمثل جوانب مشرقة في الثقافة العربية الإسلامية وهو صورة ومادة الحضارة الإسلامية الزاهية التي بلغت قوة أوجها وعزتها

3-2 التجديدية: ' يمثل التجديد الأداة التي بدونها لا تحصل عملية التغيير سواء من الناحية الفكرية أو الاجتماعية أو الحضارية وحتى التاريخية. لأن الأزمة أزمة تغيير الأوضاع الاجتماعية وقبلها فكرية

وثقافية، وأزمة بحث علمي ومشكلة التغيير تبدأ من تغيير الذهنيات وتغيير العادات والتقاليد وتغيير مناهج البحث والدراسة فالمشكلة هي مشكلة تجديد لأنه لا سبيل لحل أزمة التغيير الاجتماعي وأزمة المناهج في الدراسات الإسلامية إلا بواسطة التجديد، تجديد اللغة ومنطقها، وتجديد مستويات التحليل وتجديد البيئة الثقافية.

ويعود سبب فشل المحاولات المتكررة لحل مشكلة التراث والتجديد إلى ارتباط تلك المحاولات بحلول مستوردة لأزمة خاصة لها ظروفها وأوضاعها تختلف عن الأوضاع والظروف التي وجدت فيها تلك الحلول، أو الاكتفاء بحلول ذاتية موروثية من القديم حيث لم تعد تلك الحلول تناسب مشكلات العصر الذي تختلف ظروفه عن الظروف التي نشأ فيها التراث. فالحاجة ملحة إلى التجديد وهو مشروع "التراث والتجديد لأنه هو القادر على إفادة الواقع بنظريته في التفسير، فالتراث هو نظرية الواقع، والتجديد هو إعادة فهم التراث حتى يمكن رؤية الواقع ومكوناته والتراث والتجديد عند "حسن حنفي" يؤسسان معاً علماً جديداً وهو وصف للحاضر وكأنه ماض يتحرك، ووصف للماضي على أنه حاضر

4- شروط التجديد الحضاري عند مالك بن نبي :

إن المشكلة الأساسية عند فكر مالك بن نبي -كما رأينا- هي مشكلة الحضارة، وشروط حل هذه المشكلة والإلمام بشروط النهضة والتحضر هو الارتقاء بالفكر إلى درجة الوقائع الإنسانية ذات الطابع العالمي، ولا يمكن لشعب ما أن يفهم أو يحل مشكلته مالم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارة أو تهدمها وأن حضارة أي شعب تمثل حلقة في سلسلة الحضارات تجسد جهود وأعمال الشعوب باعتبارها أجيالا متعاقبة متصلة فيما بينها في سبيل الرقي والتقدم . فما هي شروط هذا الرقي وهذا التقدم؟

إن هذا السؤال يرتبط في أصله بالتجديد الحضاري، لأن أي تقدم أو رقي لأي شعب لا يقع خارج التجديد الحضاري حيث تتجاوز مهمته (التجديد الحضاري) من إصلاح الأوضاع إلى تشخيص الفساد وأسبابه وتحديد المبادئ والغايات والسبل والوسائل المناسبة والمتاحة لإزالة الفساد وتجاوزه، ومن مهامه أيضا نجده يسعى الى إحياء القديم وبعثه وتكييفه مع المستجدات، فالتجديد الحضاري يمثل جوهر الحضارة ومحركها وجوهر التاريخ ومحركه لأنه ضروري لميلاد الحضارة وضروري لتطورها عبر التاريخ، وأن شروط هذه العملية (عملية التجديد) مرتبطة بشروط البناء الحضاري والتي حددها مالك بن نبي في كتابه شروط النهضة وهي:

4-1- الشروط النفسية:

نستطيع أن نتعرف على شروط التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، انطلاقاً من قول الله سبحانه وتعالى : **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**¹²، يتضح من الآية الكريمة أن الله خلق الإنسان وخصه وحده بالتكريم والتفضيل، فوهبه العقل والقدرة على الإبداع والتجديد، أي القدرة على بناء الحضارة والتحضر، حيث أن النهضة تحتاج في حياة أي أمة، إلى شروط نفسية تكون في البداية ذات طابع ذاتي خاص ثم تتبلور وتشق طريقها داخل المجتمع فتصبح ذات طابع اجتماعي.

وبعض الشروط التاريخية يفرضها الاجتماع البشري وشبه العلاقات الاجتماعية والحياة داخل المجتمع، فمثلا دعوة "الرسول ص" إلى الإسلام بدأت من بيته ثم انتشرت في جميع بقاع الكرة الأرضية، ودعوة "كارل ماركس" إلى الاشتراكية بدأت كفكرة نادى بها صاحبها ثم صارت عقيدة يؤمن بها أصحابها ويدعون إليها، ومن جهة أخرى نجد الحياة في المجتمع تقتضي النظام وأشكال أخرى من العلاقات والأنشطة مثل المعاهدات والاتفاقيات وتقسيم العمل والتعاون وغيره، وهذا يعني أن التجديد الحضاري في أي نهضة تاريخية يشترط جملة من العوامل الاجتماعية بعضها نابع من أفراد المجتمع وبعضها صادر عن المجتمع ذاته، وفي الحالتين معا الحضارة مشروطة بعوامل اجتماعية وتحقق غايات اجتماعية كما تلازم المجتمع بكافة معطيائه.

إنّ الشروط النفسية تكون وراء أي حضارة كما تلازمها وهي تنجز وتصنع منتجاتها، وتمثل هذه الشروط كذلك غايات وأهداف الحركة التاريخية لأن استراتيجية التجديد والبناء الحضاريين تقوم على التخطيط وربط المبادئ والأفكار بالأهداف والغايات.

هذه المبادئ والغايات نابعة من الفرد الطموح إلى الحضارة، كما يتمتع بالشروط الأولية التي تضعه في أعلى درجة وفي أعلى هرم مقارنة ببقية المخلوقات الأخرى من خلال امتلاكه لكافة عوامل وعناصر الحضارة، فهو ينشئ الحضارة بالعقل والقدرة على الإبداع وله القدرة في أن يتأثر ويؤثر في غيره من خلال استعماله لفكره ولغته التي هي وسيلة التواصل.

ومن هنا يتجلى البعد الإنساني في الحضارة والتجديد الحضاري، فالطبيعة البشرية وما تتوفر عليه من دوافع فيزيائية ونفسية وعقلية وأخلاقية واجتماعية هذه الدوافع تتحول إلى فاعليات قوية تخطط طريقها نحو التجديد الحضاري، فتصبح الحضارة ظاهرة إنسانية تكرر رسالة الإنسان في هذا الوجود كما تميزه عن غيره من المخلوقات التي لم تشهد الحضارة إطلاقاً، وهي من خلال عناصرها وشروطها ومنتجاتها تجسد القيم الإنسانية حيث أن للفرد ذات زاخرة بالميل والرغبات والأهواء والعواطف، التي تبدأ بالطابع الفردي الخاص ثم تشق طريقها داخل المجتمع، وما رغبة الإنسان في تغيير حياته ونمط عيشه نحو الأحسن إلا ضرب من الرغبة التي تحرك الإرادة فتتحرك سائر القوى الذهنية والنفسية ومعها القوى العضوية فيحصل التجديد، حتى أن البعض يرى بأن العنصر الانفعالي هو المحرك الأساسي لعملية الإبداع فالإنسان في نظره يرغب في شق طريقه نحو النهضة والحضارة وهو ما يعرف عند مالك بن نبي (بالعدة الدائمة)¹³، حيث تتكون هذه الثروة الإنسانية من الإنسان والتراب والوقت لأن الحضارة تتجسد في ذلك الرجل الذي تحرك في التراب الذي يمدّه بقوته مستغلاً الوقت اللازم للوصول إلى أهدافه.

والعدة الدائمة تمثل ميراث الإنسان والتاريخ والمجتمعات وهي ليست حكراً على احد ولا هي من منجزات أو منتجات الحضارة، بل تتكون وتتركب منها ولهذا نجد الانسان لا يمكنه أن يفرط في العناصر الثلاثة التي تمثل رأسماله الأول لتحقيق وجوده الاجتماعي والمدني، وإن كان قادراً على الاستغناء عن منتجات الحضارة ومنجزاتها مؤقتاً، فالشعوب التي شاركت وانهزمت في الحرب العالمية الثانية لم تقدر خسارتها بالذهب، بل بساعات العمل، أي بمقدار من الوقت وبمنتجات التراب، تلك القيم الخالدة التي نجدها كلما وجب علينا العودة الى بساطة الأشياء، أي كلما تحرك رجل الفطرة وتحركت معه حضارة في التاريخ لأن الحضارة بسائر منجزاتها ومنتجاتها الفكرية والمادية ترجع في أصلها إلى (العدة الدائمة)¹⁴، وأي منتج حضاري هو حصيلة تأليف بين العناصر الثلاثة، فالمصباح الذي نستعمله في الإنارة هو منتج حضاري أنجزته جملة من الأفكار تطورت مع الزمن عند الإنسان الذي يمثل العنصر الأول الذي يدخل في إطار التدخل البشري الفكري واليدوي، ابتداء من أول إنسان فكر في المصباح وصنعه وصولاً إلى "توماس إديسون" مخترع المصباح الكهربائي والتراب فهو العنصر الثاني، فيمثل المادة الأولية التي تقوم بمهمتي الوصل أو العزل أما الوقت فهو الذي تجري فيه عملية الانجاز وبناء الناتج الحضاري لأنه يمثل الزمن الذي تجري فيه الأحداث الإنسانية ويتحرك فيه المجتمع داخل التاريخ. وتتكون في مجاله الحضارة.¹⁵

4-2- الفكرة الدينية:

إنّ الفرد في حاجة إلى الجماعة، فهو في أمس الحاجة إلى النظام ليحقق وجوده واستمراره، وهذا الاجتماع يظهر في صورة مجتمع يبقي في حاجة كبيرة إلى عقيدة موحدة لكي تنشئ العلاقات والقيم الأخلاقية، وتزرع في أفراد المجتمع الشعور المشترك بحاجة الأفراد إلى بعضهم البعض، حيث تعتبر العقيدة الموحدة هي الدافع إلى النهوض بالمجتمع، فيبدأ التاريخ وتتطلق الحضارة فالتاريخ يصنعه الإنسان والحضارة إنتاج إنساني في التاريخ وهذا الصنع وهذا الإنتاج من فعل الانسان بدافع من الفكرة الدينية، فالعقيدة تغذي الروح، لأنّ الحضارة في طورها الأول تشتت عوامل روحية دينية تكون وراء كل تجديد حضاري، وهو ما نجده في الحضارة الإسلامية حيث بواسطة تعاليم القرآن وسنة الرسول (ص) بزغت

شمس الحضارة وسطع نور النهضة في صحراء العرب بعدما تحكمت فيهم تقاليد وأحكام وأفعال الجاهلية مثل وأد البنات، والزنا، والعصبية. وبناء على هذا فإن الحضارة عند مالك بن نبي تصنعها الفكرة الدينية والمبدأ الأخلاقي من خلال التأليف والتوحيد بين عناصرها الثلاثة: الإنسان التراب والوقت، حيث تمثل الفكرة الدينية المركب في كل تجديد حضاري أو نهضة حضارية،¹⁶.

4-3- التغيير:

يعتبر التغيير عند مالك بن نبي جوهر ولب عملية التجديد الحضاري وهو شرط لازم لكل تطور أو بناء أو إصلاح أو بعث حضاري، فكما يكون التغيير شرط البناء الحضاري فقد يشرف على هدم هذا البناء وإزالته، ومالك بن نبي يضع التغيير كفاعلية إنسانية فردية واجتماعية وأمميه وراء كل نهضة، ومبدأ التغيير عنده يمثل قاعدة أساسية أكد عليها القرآن الكريم في قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ"¹⁷.

وقد تناول مالك بن نبي مبدأ التغيير كقاعدة عامة في كل حركة تاريخية حضارية فهو يلزم كل عملية من شأنها أن تجدد أو تطور أو تصنع التقدم والإبداع في مختلف مجالات حياة الإنسان الفكرية والاجتماعية والمادية، كما تناوله كمشكلة مطروحة أمام العالم الإسلامي الذي يعاني الجمود والركود والتخلف.

وحل هذه المشكلة مرهون بتمسك المسلم بالقاعدة المقررة في الآية السابقة، كما أن عملية إنتاج الأفكار والقيم والأشياء بفعل التجديد الحضاري تكون بدافع الفكرة الدينية هذه العملية تتضمن تغييرا يحدث في روح الفرد وروح المجتمع وروح الأمة ولا يحصل التغيير في محيط الفرد ما لم يحصل في نفسه أولا، وتغيير النفس هو الأساس لكل تغيير هادف رشيد فالاستعمار لم يستطيع فعل شيء مادام الفرد يملك نفسا تحررت من المذلة بفعل تغيير نفسي مكنها من القيام بوظيفتها الاجتماعية ولا يتغير شيء في الخارج إن لم يغير الفرد نفسه¹⁸، فالتغيير ضرورة لا بد منها لكي يحقق الإنسان وجوده في التاريخ ويقوم بوظيفته الاجتماعية التاريخية، والتغيير يبدأ من داخل نفس الفرد ثم يشق طريقه نحو الخارج فالفرد لا يمكنه أن يغير شيئا في الخارج فإن لم يغير شيئا في نفسه و يظل التغيير فاعلية إنسانية ضرورية للتجديد الحضاري عند الإنسان الذي يتحرك في التاريخ ليحقق وجوده، هذا الإنسان الذي صارت إرادته قوية ورغبته كبيرة في الارتقاء الحضاري بعدما هجر الجمود والتخلف والانحطاط وبذلك يكون قد شق طريقه نحو البعث والإحياء وإعادة البناء

4-4- البناء لا التكديس:

اعتمد مالك بن نبي في تحديد شروط النهضة والتجديد على شواهد تاريخية حيث أرجع كل مشكلات الإنسان جميعا إلى مشكلة الحضارة لأن القضية ليست قضية فقر، وإنما هو أمر يتعلق بأساس مشكلاتنا، فعلى أن نفكر في جذور المشكلات ونذكر أن القضية قضية حضارة، وما الفقر والغنى والجهل والمرض إلا أعراض لتلك المشكلات الأساسية¹⁹، فالحضارة عند مالك بن نبي تقتضي تجنب الاتكال على الغير وتحاشي أسلوب الاستيراد والتكديس فلا يتحضر شعب إلا إذا امتلك وعيا حضاريا يميز بين البناء والتكديس وبين الإنتاج والاسترداد، فالبناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة لا التكديس لأن عملية إنشاء الحضارة لا تتم بشراء كل منتجاتها وتكديسها فذلك مستحيل من حيث الكم والكيف معا، لأن لحضارة لا تباع كل منتجاتها مرة واحدة، فلها روح وأفكار وأذواق خاصة بها تبقى لها، لأننا عندما نشترى منتجاتها - الحضارة- فإنها تمنحنا هيكلها وجسدها لا روحها وتعجز الأمة المستوردة عن شراء كل منتجات الحضارة ودفع ثمنها لأنها لا تملك رأسمال ذلك فالاستحالة هنا تاريخية واجتماعية واقتصادية والتسليم بالإمكان يؤدي إلى حضارة الشيئية²⁰، في حين أن الحضارة الحقة هي عملية بناء، تتطلب أسسا فكرية ومادية في عالم الأشخاص والأشياء وفي إطار منهج يحدد المبادئ والغايات، فلكي نقيم بناء حضاريا لا

يكون ذلك بأن نكدس المنتجات وإنما أن نستغل شروط البناء استغلالاً رشيداً يسمح بإنشاء حضارة فذلك يتطلب توجيهها رشيداً لعناصر وشروط وإمكانات وطاقت الفرد والمجتمع²¹.

4-5-التوجيه:

يعتبر التوجيه شرطاً ضرورياً للنهضة والتجديد الحضاري انطلاقاً من أن النهضة مشروطة بالتغيير الذي يقع على مستوى الفرد والمجتمع، هذا التغيير الذي يضمن تحرك التاريخ بفعل دوافع نفسية واجتماعية، ولا يؤدي المجتمع رسالته إلا بوجود ترابط عضوي بين مكونات شبكة العلاقات الاجتماعية طبقاً لتأثير طوائف اجتماعية ثلاثة:

أ/ تأثير عالم الأشخاص.

ب/ تأثير عالم الأفكار.

ج/ تأثير عالم الأشياء.

حيث أن هذه العوالم لا تعمل متفرقة، بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته من "عالم الأفكار" يتم تنفيذها بوسائل من "عالم الأشياء"، من أجل غاية يحددها "عالم الأشخاص"²² فالتغيير التاريخي من إنتاج العوالم الثلاثة ووحدة التغيير التاريخي ضرورية لأن ذلك في نظر مالك بن نبي يجسد الحضارة في الواقع وهذا الشرط يستلزم كنتيجة منطقية وجود "عالم رابع" وهو مجموع العلاقات الاجتماعية الضرورية، أو ما يطلق عليه "شبكة العلاقات الاجتماعية" فالمشكلة بأكملها مشكلة فرد يصنع التاريخ من خلال تأثيره في المجتمع بفكره وعمله وماله والتوجيه في هذه النواحي الثلاث الفكر والثقافة، العمل ورأس المال.²³ إن توجيه الإنسان في النواحي الثلاث لغرض التجديد الحضاري يرتبط بتوجيه التراب والوقت، بل يشترط ذلك ليكون الفعل الحضاري متكاملًا، فالتراب عنصر من عناصر تكوين الحضارة وقيمتها الاجتماعية تكون على قدر مالكيه من التقدم أو التخلف والإنحطاط أما الزمن فهو العامل الثالث من عوامل الحضارة الذي يمثل ثروة في مجالات الحياة وهو جوهر لا يقدر بثمن ولا يتحدد معنى الوجود الإنساني إلا بتحديد فكرة الوقت ووعي قيمته.

والتربية هي الأداة الوحيدة التي تغرس في أفراد المجتمع قيمة الوقت وتثبتها فيهم، فإذا استغلينا الوقت هكذا فسترتفع كمية حصادنا العقلي واليدوي والروحي وهذه هي الحضارة.²⁴ إن التجديد الذي دعا إليه مالك بن نبي له طابعه الخاص لأنه حتى وإن كان يلتقي مع المحاولة الإصلاحية عند مفكري الإسلام كمحمد إقبال غير أن فكره انطلق من واقع العالم الإسلامي ومن تخلفه ومشاكله اليومية، في الدين والاجتماع والثقافة والسياسة والأخلاق وغيرها، وهي مشكلات حضارة في الأصل والجوهر. وقد قام بتحليل واقعه وتحليل واقع الأمم المتحضرة في عصره، وانتقدتهما بطريقة علمية، كما حلل وانتقد الحياة الفكرية في العالم الإسلامي المتخلف، وحتى أوروبا المتحضرة. وركز على استيعاب ونقد الفكر الإصلاحي الحديث والمعاصر في العالم الإسلامي، وفلسفة التاريخ في أوروبا من خلال رؤية "شبنجلر"، ومنظور "كيسرلنج"، ونظرية "توينبي" و"فيكو" وغيرهم.

وقد انبثقت عن هذه الدراسة النقدية التي قام بها مالك بن نبي سواء في الحضارة، أو في التجديد الحضاري، التأكيد على البعد الروحي والديني للحضارة، لكون الفكرة الدينية تؤلف بين عناصرها، وتوحد الانسجام بين شروطها ولوازمها، كما تضمن لها البقاء والاستمرار والازدهار بالإضافة إلى فعل التغيير الذي يحققه هذا البعد (الروحي) في داخل نفس الإنسان، وفي أعماق ذاته، ثم يجري في المحيط الذي يعيش فيه، وهي سنة سنّها الله لتسير عليها الحياة، ويقررها القرآن في قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ"²⁵، والتغيير يسمح للإنسان بأن ينتج حضارته بنفسه، بعيداً عن الاستيراد والتبعية والديونية الحضارية، فالحضارة الحقّة هي التي تلد منتجاتها، وليس العكس. لذا يجب التمييز بين

البناء والتكديس، والأخذ بالبناء لا التكديس، ويبقى التوجيه شرطاً ضرورياً لكل صحة أو نهضة حضارية، توجيه الإنسان، وتوجيه الأفكار وتوجيه الأشياء.

لأن فعل التجديد الحضاري عبارة عن تغيير يجري على الإنسان في عالمه النفسي الداخلي، ثم عالمه الخارجي، وأساسه روحي، يظهر في الحياة بجميع مجالاتها. ويتجلى في النهاية في صورة تقدم وازدهار روحي، وتقدم وازدهار مادي، ومتى حصل التوازن والانسجام والتكامل بين الجانب الروحي والجانب المادي بلغ الإنسان قمة التحضر التي هي غاية التاريخ والمجتمع ومبتغى الإنسان فالتجديد في الحضارة من حيث تكوينها أو تطورها أو استمرارها، أو إصلاح أوضاعها يقتضي عدة دائمة وتغييراً يبدأ من داخل الفرد ثم يتجه إلى الخارج، فيحصل البناء من خلال توجيه وتخطيط يربط المبدأ بالغاية، ويستغل جميع الوسائل والمناهج ويستغل جميع الوسائل والمناهج لخدمة الإنسان ولتحقيق أغراضه القريبة والبعيدة.²⁶

5- أبعاد التجديد الحضاري عند مالك بن نبي:

شهدت الإنسانية عبر تاريخها الطويل عدة حضارات. واستقرت هذه الحضارات يثبت أن قوة الحضارة مشروط بالانسجام بين جهد الإنسان وغاياته العليا أما ضعف الحضارة وانحلالها سببه تحلل الإنسان في فكره وسلوكه، فمن خلال التاريخ يمكن للإنسان أن يحدد مكانته في الدورة التاريخية بل في الحياة ككل ويدرك أسباب التخلف والانحطاط وعوامل النمو والنهضة، فيصبح التاريخ بهذه الأهمية أداة تقويم للذات، فهو يمد الإنسان بالمعايير اللازمة للوصول إلى الحقيقة وبذلك فإن عملية التجديد الحضاري تبدأ عندما يتحرك الإنسان ليدخل إلى التاريخ ويؤثر عليه مما يثبت لنا أن للتجديد الحضاري أبعاداً تاريخية واجتماعية قد حققها.

5-1 البعد التاريخي والاجتماعي:

يمثل التجديد الحضاري حركة إنسانية تنطلق من نقطة ما لتصل إلى أخرى داخل مجال التاريخ، لأنه هو الذي يسجل هذه الحركة منذ انطلاقتها ويسجل مراحلها وكل ما يصيبها وما يطرأ عليها من تغييرات، وأن أية حضارة من الحضارات سواء ماضية أو حاضرة أو تكون في المستقبل تتكون بفعل التجديد الحضاري.

والتاريخ هو الذي يسجل هذه المرحلة من النهضة الحضارية من البداية إلى النهاية، لأن ميلاد الحضارة لا يكون بالصدفة أو من العدم بل من معطيات تاريخية سابقة، فالتاريخ يمثل الإنسان والحضارة والتجديد الحضاري، وتمثل المعطيات التاريخية لأية نهضة حضارية شروطاً وأسباباً تنتج النهضة والتجديد والحضارة، هذه الحضارة يلعب في بنائها الفرد في صلته بمجتمعه وفي علاقته بالتاريخ دوراً رئيسياً.

لأن أي تجديد في الحضارة هو من صنع أسباب نفسية وعوامل زمنية تاريخية وكذلك إجماعه،²⁷ كما أن عملية التجديد تحددها حاجة الفرد إلى الاجتماع الإنساني، فهو لا يستطيع أن يوفر لنفسه كل ما يحتاج إليه من ضروريات وكماليات ولا يقدر على بناء الحضارة بمفرده، وبالمقابل فالاجتماع البشري في حاجة إلى الفرد لأن الاجتماع ذاته هو اجتماع أفراد يجمعهم حاضر واحد ومصير واحد، فنتوحد الجهود وتتحدد الغايات والسبل والوسائل وتتحدد لضمان حياة اجتماعية، هذه الحياة الاجتماعية في حاجة إلى علاقات تنظم حياة الأفراد داخل الاجتماع، فيصبح الاجتماع في حاجة إلى النظام فيتشكل المجتمع، والواقع أن حركة المجتمع التي تحدث التغيير والتطور تمثل حركة التجديد الحضاري في التاريخ، هذه الحركة هي التي تبني المجتمع وتصنع الحضارة وتحدث التطور التاريخي.²⁸

ومن هنا نستنتج أن التجديد الحضاري يشترط المجتمع والمجتمع يشترطها، وانهايار حضارة أي مجتمع هو انهايار للخصوصيات التي يتميز بها هذا المجتمع، وأي اجتماع بشري بدون حضارة يغلب عليه الطابع البدائي ويسوده قانون الغاب وتحكمه الهمجية، فالحضارة هي التي تحمي المجتمع من الهمجية، ويؤيد تاريخ الحضارات ما يذهب إليه "مالك بن نبي"، فالعرب في الجاهلية كانوا بدوا رحلاً تسيطر عليهم الوثنية والنصرة القبلية وغيرها من العادات الفاسدة، فإذا بالإسلام يبعث فيهم روح التألف ويدفعهم إلى

التحضر، فكان لهم ما هو معروف من حضارة²⁹، ففي مجتمع الحضارة يتوفر مناخ الحرية والحماية للفرد، فالتجديد الحضاري مرهون بوجود المجتمع لينطلق من داخله فيغيره والمجتمع لا يتطور ولا يحافظ على حياته ولا يشهد الحضارة ولا يعرف التجديد الحضاري إلا بفعل هذه الحركة.

وقد أكدت معظم الدراسات في تاريخ الحضارات أنّ كل حركة تجديد حضاري تنطلق من داخل المجتمع بتوجيه أخلاقي وضوابط أخلاقية، فالمجتمع في حاجة إلى قوة تماسك لأفراده لممارسة التجديد الحضاري وبناء الحضارة، ويحصل التماسك لدى الفرد بفعل الغريزة أما المجتمع التواق إلى الحضارة وإلى الرقي والسمو فإنه يستعمل الغريزة نفسها، "ولكنه يهذبها ويوظفها بروح خلقي سامي

5-2 البعد الأخلاقي للتجديد الحضاري:

انطلق مالك بن نبي من مسلمة مفادها أنه لا يمكن لأي مجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك دون وجود شبكة العلاقات التي تؤلف بين عناصره المختلفة بما فيها النفسية والزمنية. وأنّ كل علاقة هي في جوهرها قيمة ثقافية يمثلها القانون الخلقي والدستور الجمالي الخاص بالمجتمع فالقانون الخلقي تتضمنه العلاقة الاجتماعية التي هي في جوهرها قيمة ثقافية، بحيث أن الغاية من وجود القانون الخلقي هو بناء المجتمع والمحافظة على تماسكه وإدخاله في التاريخ من خلال تمكينه من التجديد الحضاري وتكوين الحضارة وتحريك التاريخ، وكلما حدث إخلال بالقانون الخلقي في مجتمع معين حدث تمزق في شبكة العلاقات التي تتيح له أن يصنع تاريخه "فقوة التماسك التي أوجدتها العلاقة الاجتماعية المتضمنة للقيم والقوانين الأخلاقية الإسلامية هي التي جعلت المهاجرين والأنصار يصلون إلى درجة التآخي والإيثار كما أنّ قوة التماسك بين أفراد المجتمع الواحد الناشئة عما تفعله القوانين الأخلاقية داخل المجتمعات يقدم صورة جمالية تختلف عن تلك الصورة التي يظهر عليها مجتمعا ممزقا في طريقه إلى الأفول حيث أن الجمال يمثل أحد مكونات المنظومة الثقافية، والثقافة تمثل المحيط الذي يعكس حضارة المجتمع، "والإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال بل إنّ الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أيّة حضارة"³⁰. بحيث أن الجمال ينبغي أن يشاهد في المجتمع المتحضر في جميع الأماكن والمجالات، في الشارع والبيت والسينما والمسرح، وقيمة الجمال تكبر في عين "مالك بن نبي" فهو عنده وجه الوطن في العالم، فلنحفظ وجهنا، لكي نحفظ كرامتنا ونفرض احترامنا على جيراننا الذين ندين لهم بنفس الاحترام فالتجديد الحضاري مشروط بجملة من القيم الأخلاقية والجمالية تشكل عوامل تحرك التاريخ وتبني الحضارة، وهذا يتطابق مع ما يدعوا إليه الإسلام فالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بُعث لإتمام مكارم الأخلاق، والله يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾³¹، كما اعتنى الإسلام بالبعد الجمالي في حياة الفرد والمجتمع والأمة، ويظهر ذلك بوضوح من خلال التأكيد على طهارة النفس والبدن والمحيط.³²

إنّ النتيجة التي انتهينا إليها بعد تحديد البعد الأخلاقي والبعد الجمالي للتجديد الحضاري والحضارة تؤكد أن وراء البعدين بعد آخر يمثل الأرضية والمرجعية لجميع الأبعاد المختلفة حسب "مالك بن نبي" وهو البعد الروحي الديني، فالعلاقات الاجتماعية المتضمنة للقيم والقوانين الأخلاقية وحتى الجمالية هي من صنع علاقة روحية بين الله والإنسان، وهي التي تكون وراء ميلاد أي مجتمع يدخل التاريخ ويصنع التجديد الحضاري ويبني الحضارة. لأن الفكرة الدينية تشترط سلوكا لدى الإنسان به يكون قادرا على أداء الرسالة، ودوره لا يقف عند بعث التجديد الحضاري ودفع معتنقيها إلى الحركة في التاريخ وتشكيل الحضارة بل تعمل على ضمان استمرار هذه الحضارة وحمايتها من عوامل وأسباب الانهيار والأفول. فهي تحل لنا مشكلة نفسية اجتماعية أخرى ذات أهمية أساسية تتعلق باستمرار الحضارة. فالتجديد الحضاري "عند مالك بن نبي" امتداد لأبعاد كثيرة ومختلفة وهي إنسانية ونفسية واجتماعية وأخلاقية وجمالية وهذه الأبعاد كلها ذات طابع روحي ديني تعود إلى بعد روحي، يكون وراءها يصنعها جميعا

ويحرك التجديد الحضاري ويضع الإنسان في التاريخ ويمكنه من بناء الحضارة ويحافظ على استمرارها ويحقق الوجود الإنساني بتحقيق غاياته القريبة والبعيدة وهي غايات الإسلام ومبتغاه ومقصده³³

6- مظاهر التجديد عند مالك بن نبي:

1-6- التمازج بين النظرية والتطبيق:

لعل أهم شيء أساسي جعل مالك بن نبي من بين مجددي العصر الحديث في العالم الإسلامي، هو أنه لم يكن فقط مجرد مفكر قام بسرد سلسلة من الحلول اللازمة للنهوض الحضاري، بل إنه قد جمع بين طرفي المعادلة اللازمة لأي نهوض أو تجديد، ونعني بها التمازج بين "النظرية والتطبيق". وفي هذا السياق التجديدي نجده يستعين بالتجربة اليابانية، فمن عام 1868م إلى 1905م قفزت اليابان من مرحلة العصور الوسطى إلى مرحلة الإنجازات والتطورات.

فالعالم الإسلامي إذا أراد أن يجتاز المرحلة نفسها، فما عليه إلا أن يقتبس من الكيميائي طريقته، فهو يحلل أولاً المنتجات التي يريد أن يجري عليها عملية التركيب الحضاري فإذا سلطنا هنا هذا المسلك قررنا أن كل ناتج حضاري تنطبق عليه الصيغة التحليلية الآتية: ناتج حضاري = إنسان + تراب + وقت، ففي المصباح مثلاً يوجد الإنسان خلف العملية العلمية والصناعية التي يعد المصباح ثمرتها، والتراب في عناصره من موصل وعازل، أما الوقت يبرز في جميع العمليات البيولوجية والتكنولوجية، وهو ينتج المصباح بمساعدة العنصرين الأولين: الإنسان والتراب" ولم يكتف مالك بن نبي بما ذكر، وهو يصدد رسم معالم الطريق لمسلم اليوم، لتحقيق انطلاقة حضارية راشدة تساعده على إنجاز البناء الحضاري المعاصر، فيواصل تحليله لهذه الصيغة الرياضية، فيقول: "الصيغة صادقة بالنسبة لأي ناتج حضاري، وإذا ما درسنا هذه المنتجات حسب طريقة الجمع المستخدمة، فسننتهي حتماً إلى ثلاثة أعمدة ذات علاقة وظيفية: حضارة = إنسان + تراب + وقت.

وتحت هذا الشكل تشير الصيغة إلى أن مشكلة الحضارة تتحلل إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت. فلكي نقيم بناء حضارة لا يكون ذلك بأن نكسد المنتجات، وإنما بأن نحل هذه المشكلات الثلاث من أساسها"³⁴

6-2 بين الفكرة والواقع:

من أهم المظاهر الأساسية التي يمكن استخلاصها من خلال تحليلنا لمنهج البحث في فلسفة عند مالك بن نبي هو صياغته للعلاقة بين الفكر والواقع وهذا حينما حاول إيجاد العلاقة بين الوسائل التي يملكها المجتمع بالغايات التي حددها هدفاً له، وهذا من خلال طرحه لمشكلة الفعالية الحضارية (أو التجديد الحضاري) وهو بحث في العلاقة المتبادلة بين العناصر الثقافية التي تؤثر في البنية الحضارية، وفي مدى ملاءمة هذه القيم والأفكار للغايات التي تسعى الحضارة لتأصيلها في محيط الإنسان الاجتماعي³⁵ وفي هذا السياق يمكن القول بأن التجديد عند مالك بن نبي إنما هو عملية بنائية تستهدف إقامة حضارة بواسطة نظام من العلاقات الاجتماعية، أو هو تحويل الواقع الاجتماعي المتخلف إلى تركيب حضاري، عن طريق شبكة العلاقات الاجتماعية فالتغيير الاجتماعي بالضرورة هو من صنع الأشخاص والأفكار والأشياء جميعاً، ولا بد من توفر صلات ضرورية بين هذه العناصر كي يؤدي التغيير الاجتماعي وظيفته ويتحقق الوصول بالمجتمع إلى الحضارة، والأشياء التي تنشأ نتيجة التفاعل بين العناصر الثلاثة الأولى الأشخاص والأفكار، وترابطها في كيان عام من أجل عمل مشترك هو تحقيق الحضارة³⁶ وفي ضوء هذا المنظور النسقي للتجديد الحضاري المنبثق عن فلسفة حضارية واعية، يبدو مالك بن نبي - كمفكر اجتماعي ومجدد إسلامي أصيل- يقترب في كثير من موضوعاته إلى دراسة الواقع الاجتماعي حيث تشغل نظريته في هذا الصدد جانباً هاماً من أعماله، بما ينبثق منها من أفكار ومعالجته لقضايا

الثقافة والبناء الاجتماعي، وقد امتاز في كل ذلك بروية سوسولوجية خاصة، وخصوصية في المنهج فرضها وعيه المتميز والمبكر، بضرورة أن يكون هناك علم اجتماع خاص بالعالم الإسلامي³⁷. وللخروج من الأزمة يري مالك بن نبي من الضروري أن نعود إلى الدين والعقيدة والتي يفرضها الفهم الصحيح للإسلام لأنه إلى جانب كونه عقيدة خالدة، فهو أيضا شريعة قادرة على احتواء الأزمة الحضارية للمسلم المعاصر، والعودة بمنحنيات الانكسار في الحضارة الإسلامية إلى مسارها الذي أراده لها الحق تبارك وتعالى كخير حضارة تفتقر عنها قلب التاريخ، لأن أمتنا هي خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتهدي البشرية الحائرة إلى استقامة المنهج وصدق الرسالة، وفق قيم الجمال والحق والخير والعدل³⁸

6-3 الإنسان ودوره في عملية التجديد الحضاري

: دعا مالك بن نبي المسلم اليوم إذا كان فعلا جادا في تبني خيار التجديد الحضاري فعليه أن يتلمس العودة لإيقاظ روح الإيمان الموجودة فيه، وتقوية تكوينه العقائدي والأخلاقي، وذلك بنفس معيار الطاقة والفعالية التي أتسم بها المجتمع الإسلامي في عهد الرسول (ص) حيث أن التاريخ الحضاري للبشرية يؤكد لنا بأن كل عملية تقدم وتطور لا يمكن أن تتحقق إلا إذا ارتبطت بوجود قوى داخلية تصنع هذا التقدم- أو التجديد الذي يكمن في بناء المسلم المعاصر على أسس روحية مستمدة من مفاهيم الفكر الإسلامي الصحيح، كما يؤكد أيضا على ضرورة الإبداع الذاتي في عالم الفكر وعدم الاعتماد على الفكر الغربي كلية، وذلك لأن هذا الفكر وليد بيئته الخاصة، ووليد روح إنسانية لها سمتها الخاصة به³⁹ من هنا يمكن القول بأن التجديد الحضاري، كما يراه مالك بن نبي، لن يتحقق في أرض الواقع إلا بفعل ديناميكي يحركه، لأننا نجد في بداية كل حضارة ثمة فكرة فاعلة قادرة على تغيير ما بالنفس، ومن ثم تغيير ما بالعقل، وذلك من أجل الإقلاع الحضاري نحو التجديد، إنها الفكرة المشحونة بالرؤية الكونية والمسؤولية الإنسانية الشاملة، إنها الطريق الشرعي والفطري لصناعة الحضارة الإنسانية والتقدم⁴⁰

7-1 البناء الحضاري وتحقيق التقدم:

الحضارة -عند مالك بن نبي- هي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه⁴¹، فالحضارة إذن تمثل حصانة لحياة الإنسان، وفيها تأمين على مصيره، وتوفير لاحتياجاته، وحفاظا على شخصيته الوطنية والدينية. فالحضارة يصنعها تاريخ الإنسان بعد أن تمده الطبيعة بالطاقات، ولكن إذا أحسن تكييف هذه الطاقات، وتوجيهها نحو أهداف محددة واضحة، وهذا الأمر مرهون بمدى الانسجام بين النمط الفكري الذي يحكم هذه الحضارة عبر التاريخ، وبين الطاقات المتوفرة أو التي يمكن توفيرها لتنفيذ الجانب العملي. وصناعة التاريخ عند مالك بن نبي تتم تبعا لتأثير طوائف اجتماعية ثلاث:

أ/ تأثير عالم الأشخاص. ب/ تأثير عالم الأشياء. ج/ تأثير عالم الأفكار

. لكن هذه العوالم الثلاثة لا تعمل متفرقة، بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج إيديولوجية من عالم الأفكار، يتم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء، من أجل غاية يحددها عالم الأشخاص. وكما أن وحدة هذا العمل التاريخي ضرورة فإن توافق هذه الوحدة مع الغاية منها، وهي التي تنسجم في صورة حضارة⁴² يعطي هذا النسيج المطلوب لصنع الحضارة مفهوما يقيم التوازن بين وجهي الحياة المادية والمعنوية، وبهذا التوازن يتم الالتزام بالإسلام من أجل التحضر، حيث ترفض أحكامه، السقوط بالإنسان ليصبح عبدا للأشياء. فأى توجه حضاري جديد يتطلب إعادة قضية التوازن الروحي- المادي، وإذا ما توحدت ذات الفرد يكون ذلك خطوة على طريق توحيد المجتمع، أي بناء شبكة علاقات اجتماعية

وبقدر ما تنجح هذه العلاقات التي تسير بتوازن يمكن أن تعجل في بزوغ فجر حضارة جديدة تعيد الدور للعالم الإسلامي وللعرب على المستوى العالمي. وقد رأى مالك بن نبي أن الحضارة إذا كانت هي استيراد أشياء الأمم الأخرى، أو استعارة فكرها ومنتجاتها، فإن في هذا الفهم بذرة موت الطموح الحضاري للشعوب، ولذلك يلاحظ أن الاستعمار يحاول دوما تنمية هذا الفهم العقيم للتحضر⁴³.

ولا ينسى مالك بن نبي أهمية الروح، فالروح إذا ما اندفعت بالإنسان فإنما تندفع به لتوظف طاقاته وفكره ولا بد من التأكيد على أن السمة العامة لهذه الحضارة تنبع من قواعد الأخلاق التي تضع في الأولوية كرامة الإنسان وحقه في العيش الكريم⁴⁴، فعناصر الحضارة من إنسان وتراب ووقت لن تجدي نفعا إن لم يكن الجامع المشترك لها الأخلاق بمعناها الواسع، وهذا مبدأ عام وأساس وبفقدانه تفقد العناصر الثلاثة فعاليتها التحضيرية. وحتى العلوم بالرغم من اختلاف وتنوع مجالاتها من علوم إنسانية، إلى طبيعية إلا أن تلازمها مع الأخلاق هو الذي يجعل منها رسالة حضارية لها صفة العالمية⁴⁵، فلتحقيق البناء الحضاري علينا إذن أن ننقل من تكديس الأشياء إلى بنائها وفق إطار من النموذج المستلهم لروح الثقافة، وهو العنصر الأساسي الذي يفتقد إليه العالم الإسلامي فعملية البناء الحضاري تقوم على أساس حركة شعب أيقظته ثورة على الواقع المتخلف، وتهيأت له أفكار نابغة من تراثه وطبيعة تركيبته الثقافية والاجتماعية من أجل تحقيق رؤيته الفلسفية وقيمه العقائدية.

ومن هنا نستنتج أن الحضارة لا تنبعث -في نظره- إلا بالعقيدة الدينية الصحيحة، كما هي واضحة في الإسلام، ولا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من أشياء، بل بمقدار ما فيه من أفكار، ولقد يحدث أن تلم بالمجتمع ظروف أليمة كأن تحدث كوارث طبيعية أو تقع حروب، فتمحو منه عالم الأشياء محوا كاملا، إلا أنه إذا استطاع أن ينفذ أفكاره فإنه يكون قد أنقذ كل شيء، إذ أنه يستطيع أن يعيد بناء عالم الأشياء مثلما وقع لألمانيا عقب نهاية الحرب العالمية الثانية.

2-7 بناء الانسان:

إن بناء الفرد يستلزم عامل الزمن، وأسلوب التدرج، وعامل التوعية، والتأصيل. ويؤكد مالك بن نبي على أن بناء الإنسان منذ فجر التاريخ هو من مهمة الرجال، لأن الطبيعة لا تهب لنا كائنات جاهزا، كما أن الله لا يصنع إنسانا كاملا؛ ولقد كانت صيحة «بن نبي» كمتقف دوما يجب أن نصنع رجالا يمشون في التاريخ مستخدمين التراب والوقت في بناء أهدافهم. فالقضية الحضارية ليست قضية آلة يمكن توفير المال بشتى الوسائل لإحضارها، بل قضية إنسان مهيا لتوجيهها واستخدامها، وبالتالي فإن «مشكلة التجهيز مرتبطة بقضية الإنسان والأفكار وأن المحصول الاجتماعي للآلات مرتبط بفعالية وسلوك الفرد الذي يستخدمها»⁴⁶.

. كما أن حل مشكلة الإنسان غير متوفرة في الفكر السياسي الذي يوجه حضارة الدول الكبرى، لأنه فكر مادي بفرعيه: الرأسمالي والماركسي. ففي هذا الفكر تسود حلول أحادية الجانب أساسها المادة؛ لأن هذه الفلسفات لا ترى في الإنسان إلا عالم أعداد وأرقام، بينما المسألة تختلف جذريا في الإسلام الذي ينظر للإنسان من زاوية الاستخلاف في الأرض وأن كل ما في الكون من موجودات ومخلوقات مسخرة له حيث نجد بن نبي يقول: (إن الإنسان ليس في نظر المسلم الكم الذي تجري عليه الإحصائية والوزن، أي الشيء الذي تجري عليه تجارب المختبر وعمليات المصنع، وحاجات الجيش. بل الصفة التي قرنها الله بالتكريم في سلالة آدم، فالمسلم يكرم هذه الصفة بصورة مطلقة. كما هو منتظر فإن هذا التكريم له آثاره المحسوسة في الحياة، في التشريع وفي الآداب وفي العادات).⁴⁷

3-7 تحرير الإنسان:

من هنا بات من الواجب أن نبدأ في تحرير ذات الإنسان من الاستسلام أمام الغزو والاستعمار وذلك بأن نتدرب هذه الذات على استخدام الوسائل والقدرات المتوفرة لها، حتى تحصن وجودها من استهداف

المستعمر-بكسر الميم- لها، والذي ينوي إفقادها الفاعلية، وروح التقدم والطموح، تمهيدا لتحويلها إلى (كم) مهمل يتصرف فيه كيف يشاء، وبذلك تبدأ ثورة التغيير عندما ينجح الإنسان في تحرير نفسه من عقد النقص والانبهار بمظاهر الغرب وهذا يتم عن طريق تحريره من الترسبات الوراثية في مجال التواكل والخرافة، وبإعادة الثقة بينه وبين قناعاته وعقيدته وسلوكه وعمله.

فليس المهم في بناء الإنسان الجديد أن نبدل له نمط عيشه أو زي لباسه ونوعية أثاث منزله ومكتبه، ونوع سيارته وكمالياته، ولكن المهم أن نحدد له إطاره الحضاري في مجال الثقافة والأخلاق والاقتصاد وكافة المجالات، وبشكل آخر أن نقتلع ونصفي القابلية للاستعمار من عالمه الداخلي، حتى تنطلق طاقاته، ولتصفيته من عالمه الخارجي. فكل تغيير يطرأ على أمة معينة يجب أن يكون مرهونا بتحرير الإنسان، فحتى تحرير التراب والأرض يجب أن يسبقه تحرير الإنسان، لأن ذلك هو النهج الموصل للتخلص من الاستعمار، لأنه قد تتغير خريطة توزيع الملكية في الوطن، وقد تسند إلى أبناء الوطن وظائف كان المستعمرون يشغلونها، وقد تبدل الحروف اللاتينية بحروف عربية على واجهات ولافتات الحوانيت، إلا أن التغييرات هذه جميعها تصبح مجرد سحر للأبصار ولا يستقر أمرها إذا لم يتغير الإنسان نفسه⁴⁸.

من هنا فالبدء من الذات هو أساس الإصلاح والتغيير، وتجاهل دور الإنسان هو قصور في وعي خطورة هذا الموقف، وهو ما يترجمه خطأ السياسات التي اتبعتها العالم الإسلامي في الصميم، فقد اتجهت في كفاحها إلى المستعمر، دون أن تلتفت إلى الفرد الذي تسخره للقضاء على الاستعمار⁴⁹ فتتحقق ثورة الحرية والتقدم يبدأ من النفس، وبهذا تتعدل شخصية الإنسان، ويتم توازنها، وتتعانق جوانب الروح والمادة فيها، وبهذا النوع من الأفراد تعود الروح القرآنية إلى توجيه السلوك في المجتمع، فتكون الثمرة نهضة شاملة في العالم الإسلامي والعربي. لأن الذي يستطيع أن يجعل من العالم جديدا هو الذي يستطيع أن يبني إنسانا جديدا قادرا على تحمل مسؤولية وجوده ماديا وروحيا⁵⁰.

فالطريق إلى المشاركة في مصير الإنسانية مرهون إذن بقدرتنا على بناء ثقافتنا وفق النموذج المستمد من قيمنا الحضارية التي احتوت الإنسانية جميعها. فالإسلام ليس ديننا فحسب، بل إنه حضارة زودت عالمنا الإسلامي بالعقائد المختلفة بالنمط والأسلوب والنظرة إلى الإنسان نظرة تنفق والحقيقة العلوية المطلقة، ومن هنا تأتي أهمية ودور المثقف ووظيفته.

لأن الوعي الاجتماعي مرتبط بمدى نشاط المثقف الحيوي، فهو عقل الأمة، والمرآة العاكسة لأوضاعها والذاكرة المحركة والمشكلة لهويتها. وإذا كان "ديكارت" قد وضّح أن المعيار المميز للشعب الهمجى، هو مدى شيوع التفلسف الصحيح، فإن "مالك بن نبي" يعتبر أن ما يميز المجتمع المتحضر للتحضر عن غيره، هو مدى فاعلية المثقف.

إن بناء الإنسان مرتبط ارتباطا وثيقا بمدى ما يقدمه المثقف في العالم الإسلامي من خدمات خاصة في مجال التوعية والتعليم. لأنه في نظر بن نبي - قبل أن نبني الإنسان الجديد، يجب أولا أن نبني المثقف. ويرى "عبد القادر بوعرفه" أن الشعب الجرمانى تقطن إلى هذه النقطة الجوهرية، مما جعل "بسمارك" يعتبر أن إصلاح الفرد أمر مستحيل فاتجه أولا إلى إصلاح من يصلح الفرد، أي إيجاد المثقف. لأنه (المثقف) يمثل دورين أساسيين في كل عمل حضاري، دور المرآة التي تعكس الواقع الحقيقي دون زيف ولا خداع، ودور المصباح الذي يبين الطريق أمام الجيل المتعطر للتحضر.

ويبين بن نبي أن المجتمع الإسلامي بحاجة إلى مثقفين من حجم "محمد إقبال" الذي يعتبر في رأيه المثقف الحيوي والنموذجي في نفس الوقت، لأنه استطاع تصفية الأفكار الميتة المشحونة في نفسه عن طريق الوراثة الاجتماعية والثقافية الاستهلاكية، وبالتالي اكتسب قابلية للتحضر. لأن دور المثقف في نظر مالك بن نبي: هو توعية المجتمع بالصعوبات التي يعيشها ومحاولة انتشاله من الضياع، وتوجيهه نحو الطريق الأسلم للبحث عن الهوية. كما أن عليه ترميم شبكة العلاقات الاجتماعية التي أصابها الانحلال التي أصبحت تشبه - من حيث العلاقة- بيت العنكبوت، والمجتمع بالصفات السالفة لا يمكنه الشروع في التحضر إلا إذا اكتسب شروط موضوعية وأخرى ذاتية تدفعه نحو الحضارة، يقول بن نبي: (ومن هنا

ينبغي على المجتمع، عندما يشرع في النهوض أن يرمم ويصلح شبكة علاقاته الاجتماعية، ليتغلب على الصعوبات الناشئة في نطاق علاقاته السلطوية⁵¹

وهكذا يتضح لنا أن الوعي التاريخي، عند «بن نبي» كان واضحا في مواقفه النقدية إزاء الحضارة الغربية وفي تأكيده على الأسس الروحية والأخلاقية للبيان الاجتماعي، وقوله بضرورة مراعاة البعد الإنساني في الجوانب التنموية. وكان في معظم كتاباته وتحليلاته السلوكية والاجتماعية والتاريخية، وما صاغ من مفاهيم وموجهات فلسفية وتربوية قد قدم فكرا مميزا حيا، وعرض معالجات دقيقة وملاحظات نقدية يقظة يمكنها أن تشكل منبعا خصبا لتغذية وتنشيط التفكير الإسلامي المعاصر وإضاءة واعية ومستقبلية لما يحدث في قرننا الواحد والعشرين، الذي يعاني نفس المشكلات التي عاشها مالك بن نبي في منتصف القرن العشرين، وهي نفس مشكلات عالم العولمة الذي يدفع بالعالم إلى مزيد من الشقاء والمعاناة في ظل تدهور بيئي وكوني شامل ومريع، والاستغلال الرأسمالي، الذي تمارسه الدول العظمى والشركات العملاقة للهيمنة ليس على مقدرات وثروات العالم العربي والإسلامي بل مقدرات العالم أجمع .

إن العالم العربي والإسلامي -في نظر مالك بن نبي- يملك القدرات التي تؤهله لإنقاذ البشرية ولكن ذلك يحتاج إلى الإرادة المستقلة المتطلعة إلى التقدم، والتخلص من الواقع المتخلف الذي يفرضه الارتباط بالغرب، والإطار الشامل لأي تحول ثقافي بعيد إنساني وطابع تقدمي، هو الإسلام، ومهما كان الأمر، فإن للإسلام في هذا التوقع العالمي لتحديد ثقافة شاملة دورا كبيرا، إذ هو يأتي بعناصر ثقافية جوهرية، كما يأتي بعناصر جغرافية وسياسية ذات أهمية خاصة.. ولكننا ندرك أيضا أنه لكي يؤدي الإسلام بصورة فعالة هذا الدور المزوج، فإن عليه أن يترجم قيمه الروحية إلى نظام اجتماعي، كما يترجم إليه جميع إمكانياته الطبيعية، يجب أن يحول هذه وتلك إلى حلول مادية للمشاكل التي تواجهه في الإطار الإنساني⁵².

خاتمة:

من الواضح أن التجديد الحضاري تصنعه جملة من الشروط ويتجلى في جملة من الميادين التي تمثل مظاهر الحضارة ومعالمها، ويمثل هو ذاته عامل البناء الحضاري لكل مجتمع فهو يمثل الديناميكا الحضارية لكونه استراتيجية شعب يريد التحضر وينفر من التخلف ويرغب في التطور الروحي والمادي، ولكونه أخيرا نظاما يُنتهج وخطة تُتبع لتطوير منتجات الحضارة الفكرية والمادية، للمحافظة على منتجات الحضارة القائمة واستمرارها من خلال الإبداع في مختلف المجالات ليتحقق التقدم والازدهار، وقد يحتاج أي مجتمع إلى التجديد الحضاري حينما يحرص على بعث وإحياء قيم وأعمال وعادات طيبة نافعة يكون قد تخلّى عنها في وقت سابق، لكن في هذه الحالات التي يكون فيها التجديد الحضاري جوهر كل العمليات الحضارية وأساس «الديناميكا الحضارية» عند ميلاد الحضارة أو عند تطورها أو عند إصلاح ما تمّ إفساده، وحتى في عملية البعث والإحياء وإعادة البناء، تقف أمامه جملة من الأسباب تمنع حركته وتقضي على بوارده وعلى الشروط التي تصنعه فيشتد التخلف وتثبت أسباب الجمود والتحجر، هذه الأسباب المانعة لقيام الحضارة ولقيام التطور الحضاري وإبعاد أي فعل لأجل البعث وإعادة البناء وهي التي تمثل عند مالك بن نبي موانع التجديد الحضاري وعوائق استثمار واستغلال الرأسمال الحضاري، وقد حدد «مالك بن نبي» في أكثر من بحث وفي أكثر من كتاب ومحاضرة شروط نهضة أي شعب وهي شروط الحضارة معتبرا إياها المشكلة الأم في حياة الإنسان، فالحضارة مرتبطة بعوامل بناء كما ترتبط بعوامل هدم للبناء، وأسباب تقتضي البناء في مرحلة ما قبل الحضارة هذه الأسباب التي تتطلب شروط البناء أو هدمه ترتبط بحياة الفرد والمجتمع في جميع مجالاتها الروحية والفكرية والاجتماعي.

تعكس فلسفة «مالك بن نبي» في تعاطيها مع الدين والثقافة والعلم والسياسة والتاريخ والحضارة عامة فتح عقل الإنسان العربي الإسلامي المعاصر على هموم ومشكلات عصره، وعلى قضايا الثقافة والحضارة والأصالة والمعاصرة والثبات والتغير، وهي مشكلات الأمة وقضايا الإنسانية جمعاء، إنه عقل همّه الأكبر ومشكلته العويصة محاربة التخلف والانحطاط، والأخذ بأسباب التحضر والتقدم والبناء الحضاري، وعقل مبدع صاحب دين وفكرة دينية، وصاحب علم ونظرية علمية، وصاحب تقنية وصاحب فكر وفلسفة، يعتبره بعض المفكرين المعاصرين همزة وصل بين النهضة والصحة في سياق تاريخي جمع

بين الماضي والحاضر والمستقبل وصاحب نسق فكري متكامل في التعاطي مع مشكلات الحضارة دينيا وفكريا وثقافيا وعلميا واجتماعيا وماديا واقتصاديا. ولقد تبين لي وبوضوح من قراءتي لبعض الجوانب الهامة في فلسفة الحضارة عند "مالك بن نبي"، أن ما يجمع بين محاولته ومحاولات غيره من مفكري الإسلام في العصر الحديث والمعاصري الظروف التاريخية الزمنية والمكانية المتشابهة، والتي فيها نبتت فكرة الإصلاح عندهم، فهي متشابهة تماما، حيث الإسلام والاستعمار والتخلف في العالم الإسلامي من جهة والحضارة والعلم والتكنولوجيا في أوروبا الحديثة والمعاصرة من جهة أخرى، شكلت روافد ومصادر الفكر الإصلاحي في عصرنا، وأوجد وحدة في المبادئ والأهداف والتطلعات. البحث عند "مالك بن نبي" جاء ذا طابع علمي واقعي، وجاء الإصلاح بطابع اجتماعي علمي واقعي تاريخي.

وجاء منهج البحث قائما على التغيير في الفرد والمجتمع، وعلى القضاء على أسباب التخلف والأخذ بأسباب الحضارة كما هي في نظرية الحضارة، مصدرها التوجيه الديني والأخلاقي والعملية مع الاستفادة من خبرات وتجارب الآخرين العلمية والحضارية، ولم تكن المحاولة خاصة أو موجهة لفئة بعينها بل جاءت عامة تشمل العالم المتخلف والعالم العربي والإسلامي جزء منه لكونها مشروع تحرر واستقلال وإصلاح ونهضة وتحضر، وهو مشروع يخص أي عالم متخلف يحتاج إلى الخروج من التخلف وأية أمة تسعى نحو الريادة. وقد جاءت فكرة التجديد والإصلاح في المشروع نتيجة واقع المسلمين المتردي، وهي محاولة فكرية لتغيير النفس والفكر والواقع في العالم الإسلامي، وقد شكلت محاولته رؤية فلسفية إلى الإنسان والحياة والتاريخ والحضارة، وتمثل مشروع خطة ذات طابع فكري نظري، للنهضة وللتجديد ولبناء الحضارة، من أجل الدخول إلى المعترك الحضاري، واحتلال أمة الإسلام لمكانتها اللائقة بها.

المصادر والمراجع :

أ- المصادر باللغة العربية:

1. 1- افاق جزائرية (مشكلات الحضارة) بإشراف ندوة مالك بن نبي. ت. عبد الصبور شاهين دار الفكر دمشق سوريا ط9. سنة 2009
2. 2- بين الرشاد و التيه (مشكلات الحضارة) ت : عبد الصبور شاهين ط 1. دار الفكر دمشق سوريا سنة . 1978
- 3- تأملات بإشراف ندوة مالك بن نبي ت: عمر مسقاوي : دار الفكر دمشق سوريا ط.9. سنة 2009:
- 4- شروط النهضة: بإشراف ندوة مالك بن نبي. ت. عبد الصبور شاهين وعمر مسقاوي دار. الفكر دمشق سوريا ط9. سنة 2009
- 5- فكرة الافرو أسيوية: : بإشراف ندوة مالك بن نبي. ت عبد الصبور شاهين. دار الفكر الجزائر . ط3. سنة 1992 الموافق ل 1413 هج
- 6- في مهب المعركة (ارهاصات الثورة) ت عمر مسقاوي . دار الفكر -دمشق- الطبعة 3 سنة 1981.
- 7- مذكرات شاهد القرن (الطفل) ترجمة بقلم المؤلف دار الفكر الجزائر ط 2 سنة 1964
- 8- مذكرات شاهد القرن (الطالب) ترجمة بقلم المؤلف دار الفكر بيروت ط 1 سنة 1970
- 9- المسلم في عالم الاقتصاد (مشكلات الحضارة) : (بإشراف ندوة مالك بن نبي) ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر سوريا ط:9. سنة 2009 .
- 10- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. (مشكلات الحضارة) : (بإشراف ندوة مالك بن نبي) ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر سوريا ط:9. سنة 2009 .
- 11- ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية ج 1 (مشكلات الحضارة) ت عبد الصبور شاهين دار الفكر دمشق ط9: سنة 2009 .
- 12 وجهة العالم الإسلامي (مشكلات الحضارة): (بإشراف ندوة مالك بن نبي) ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر سوريا ط:9. سنة 2009 .

قائمة المراجع:

- 1- محمد اقبال :تجديد التفكير الديني في الاسلام: تعريب عباس محمود . سلسلة معالم الحداثة، دار الجنوب للنشر بيروت 1996

- 2-سورة البقرة الآية 30
 3» -بسطاوي محمد السعيد: مفهوم تجديد الدين، دار الدعوة الكويت، ط1، سنة 1984
 4-إبن منظور الإفريقي: لسان العرب، الطبعة، 1 دار صادر للنشر بيروت 2005
 5-عبد الله الزبير عبد الرحمان: مفهوم التجديد وتجديد الدين ،مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية 2004.
 6-موسي الاحرش، مالك بن نبي: حياته وإنتاجه الفكري،(مجلة مالك بن نبي، جامعة الأمير عبد القادر) قسنطينة الجزائر، جويلية 2006.
 7-جيلالي بوبكر: الاصلاح والتجديد الحضاري لدي محمد إقبال ومالك بن نبي (بين النظرة الصوفية والتفسير العلمي) دار الامل، تيزي وزو الجزائر، ط1. سنة 2011.
 8-سورة الاسراء، الآية 70
 9-سورة الرعد، الآية 11
 10-وجيه الكوثراني: لماذا العودة إلى بن نبي عندما يطرح منهج التغيير، ندوة الكويت ط 1، 1995.
 11-عائشة المناعي: مظاهر التجديد في فكر مالك بن نبي
 12-سورة القلم، الآية 4
 13-د. سلميان الخطيب: ، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي: دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ، ط1، 1993 ، د./ نورة خالد السعد: المرجع السابق.
 14-د. علي القرشي: التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة 1409 هـ - 1989م،
 15-عبدالحليم عويس: الوظيفة الحضارية لأفكار مالك بن نبي، مجلة الفيصل، العدد 96، دار الفيصل الثقافية، الرياض شوال 1413 هـ - ابريل (نيسان) 1993م،
 16-أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، ص148، 149 دار النفائس، بيروت عام 1984م
الهوامش:
 1- محمد اقبال: فيلسوف وشاعر صوفي، هنديّ مسلم ولد بالبنجاب شمال الهند سنة 1873. درس بلاهور ثم سافر إلى أوروبا سنة 1905 فدرس الفلسفة والحقوق بجامعة كامبردج بأنجلترا، تحصل على دكتوراه في الفلسفة من مونيخ بألمانيا. عاد إلى لاهور سنة 1908 حيث درّس الفلسفة واشتغل بالمحاماة وشارك في النشاط السياسي إلى أن توفي سنة 1938.
 2- اقبال محمد، تجديد التفكير الديني في الاسلام، تع: عباس محمود، سلسلة معالم الحداثة، دار الجنوب للنشر، بيروت، 1996، ص-ص 109-147.
 3- (1) سورة البقرة، الآية 30.
 4- (1) اقبال، مرجع سابق، ص 112.
 5- (1) بن نبي مالك، مشكلات الحضارة، شروط النهضة، تر: عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، 2006، ص-ص 68-69.
 6- حنفي حسن، التراث والتجديد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط5، 2002، ص181.
 7- سورة الاسراء، الآية 70.
 8- بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 23.
 9- بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 90.
 10- بن نبي (م)، مشكلات الحضارة، تأملات، (بإشراف ندوة مالك بن نبي)، دار الفكر، دمشق، ط1، 2002، ص-ص 199-198.
 11- بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 103.
 12-سورة الرعد، الآية 11.
 13- (1) بن نبي (م)، دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر، دمشق، ط1، 1991، ص 58.
 14- (1) بن نبي، تأملات، مرجع سابق، ص 166.
 15- (1) بن نبي، شروط النهضة، ص 106.
 16- (1) بن نبي (م)، ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، تر: عبد الصبور شاهين، (بإشراف ندوة مالك بن نبي)، دار الفكر، دمشق، ط3، 1986، ص 10.

- 17- نفسه، ص 24.
- 18- بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 148.
- 19- نفسه، مرجع سابق، ص 214.
- 20- سورة الرعد، الآية 11.
- 21- كوثراني وجيه، لماذا العودة إلى بن نبي عندما يطرح منهج التغيير؟، ندوة الكويت، الكويت، ط1، 1995، ص 68.
- 22- الحراني أسعد، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، دار النفائس، بيروت، ط 1، 1984، ص 120.
- 23- بن نبي (م)، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص-ص 42-73.
- 24- بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص-ص 102-104.
- 25- بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 96.
- 26- سورة القلم، الآية 04.
- 27- بن نبي، شروط النهضة، ص 98.
- 28- نفسه، ص 87.
- 29- بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص-ص 05-94.
- 30- الخطيب سليمان، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي: دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1993، ص 151.
- 31- السعدنورة خالد، التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي: دراسة في بناء النظرية الاجتماعية، الدار السعودية للنشر والتوزيع، السعودية، ط 1، مج1، 1997، ص 601.
- 32- القرشي علي، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة 1989، ص 692.
- 33- الخطيب، مرجع سابق، ص-ص 186-187.
- 34- الخطيب، مرجع سابق، ص 432.
- 35- عويس عبدالحليم، الوظيفة الحضارية لأفكار مالك بن نبي، مجلة الفيصل، العدد 96، 1993، ص 24.
- 36- بن نبي (م)، أفاق جزائرية، تر: الطيب شريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، د.ت، ص-ص 47-46.
- 37- بن نبي (م)، أفاق جزائرية، مرجع سابق، ص-ص 23-24.
- 38- بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 45.
- 39- بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط8، 2012، ص 134.
- 40- السمراني أسعد، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، دار النفائس، بيروت، 1984، ص 23.
- 41- بن نبي (م) شروط النهضة، مرجع سابق، ص104، وأنظر أيضا: نفسه، أفاق جزائرية، مرجع سابق، ص 68.
- 42- بن نبي، بين الرشاد والتهيه، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ط 1، ص-ص 44-49.
- 43- بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 106.
- 44- نفسه، ص 192.
- 45- بمعنى نفس المؤلف.